محاضرات في حقوق الإنسان

محاضرة في حقوق الإنسان – مدخل عام – الأطر العامة لحقوق الإنسان في الإسلام

محاضرات موجهة لطلبة السنة الثانية جذع مشترك حقوق

الأستاذ الدكتور عبد القادر حوبه

أستاذ القانون الدولي وحقوق الإنسان

كلية الحقوق والعلوم السياسية

جامعة الوادي – الجزائر

الأطر العامة التي تحكم حقوق الإنسان في الإسلام

إن أحسن من يصور لنا حالة العرب قبل الإسلام ما ورد عن جعفر بن أبي طالب في حواره مع النجاشي ملك الحبشة، حيث قال جعفر: " أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ... "

إن هذا التصوير للحياة التي كان العرب يعيشونها في الجاهلية، تبين الفرق الشاسع بينها وبين الحياة الجديدة التي أتى بها الإسلام، والتي أخضعها لضوابط جديدة تجعل من الإنسان محور العلاقات الاجتماعية.

من المتعارف عليه أن الإسلام قد جاء بقواعد شاملة في مجال حقوق الإنسان وحمايتها، إلا أن المجتمعات القديمة قبل ظهور الإسلام ظهرت فيها بعض القواعد القانونية التي دعمها الإسلام، وقدم حقوقا أخرى تضمنتها نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ولم تعرف المجتمعات الأوروبية حقوق الإنسان إلا في وقت قريب، حيث صدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام 1948 الذي لم يكن في حقيقة الأمر عالميا في كل جوانبه، بل عبر في كثير من نصوصه على أفكار غربية.

وفي عام 1966 جاء العهدان الدوليان ليدعما منظومة حقوق الإنسان الدولية، حيث تعلق الأول بالحقوق المدنية والسياسية، والثاني بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بالنظر إلى أن الإعلان العالمي لم يتميز بطابع الإلزام القانوني، حيث كان مجرد إعلان لا يتمتع بالصفة الإلزامية.

فإذا تحدثنا عن حقوق الإنسان قبل مجيء الإسلام، فقد شهد النبي ﷺ حلفا سمي بحلف الفضول[1] في دار عبد الله بن جدعان، وهو أشرف حلف عند العرب. وتضمن هذا الحلف أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها إلا نصروه وقاموا معه حتى ترد مظلمته. وقد قال عنه رسول الله ﷺ: " لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب

أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت" [2]. وقال رسول الله ﷺ: " وأيما حلف في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة ".

كما أن الإسلام عرف دستورا راقيا مازالت لم تصله الدساتير الحديثة والمعاصرة، فقد عرف الإسلام ما سمي بـ " دستور المدينة " وأطلق عليه أيضا اسم " الصحيفة أو الكتاب "، فهو دستور بين المسلمين والمؤمنين ومن تبعهم وبين غيرهم من أهل المدينة الذين دخلوا في رعاية الدولة الإسلامية الجديدة مع احتفاظهم بمعتقداتهم.

وكان هذا الدستور بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة[3]، فإذا كانت الدساتير الحديثة والمعاصرة تنظم وتنص على طبيعة نظام الحكم في الدولة واختصاصات السلطات الثلاث وحقوق الأفراد وحرياتهم، فإن دستور المدينة يعتبر مفخرة للحضارة العربية والإسلامية، فقد عني بتنظيم العلاقة بين جميع الطوائف والجماعات الموجودة في المدينة. وبمقتضى هذا الدستور يلتزم الجميع للدفاع عن هذه الدولة، وصارت الشريعة الإسلامية هي المرجعية لهذه الدولة، كما أن كل الحقوق مكفولة ومصونه للجميع كحق الاعتقاد والمساواة والعدالة ....

1- تعتبر هذه الوثيقة التي كتبت بين المسلمين وغيرهم بعد هجرة النبي ص إلى المدينة بمثابة دستور، وتضمنت ما تعالجه الدساتير الحديثة من خطوط كلية لنظام الحكم في الدولة وعلاقاتهم في الداخل والخارج.

2- هذه الوثيقة ما هي إلا جزء من الأحكام الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم، ومن ثم فإن هذه الوثيقة ما هي إلا إسقاط لنصوص القرآن الكريم على أرض الواقع.

3- هذه الوثيقة تثبت أن الإسلام هو عقيدة وشريعة، وليس دينا يحكم علاقة العبد بربه فقط، بل هو شريعة تحكم مقومات الدولة الدستورية القانونية.

4- إن هذه الوثيقة الدستورية تدل على حسن معاملة الإسلام لغيرهم.

5- إن الذي يجمع المسلمين هو الإسلام وحده، وهو الذي يجعلهم أمة واحدة وهو ما تضمنته الوثيقة: " المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ".[4]

6- إن هذه الوثيقة هي عبارة عن منهاج ينبغي أن تسير وفقه كل دساتير العالم الإسلامي.

لم تغفل الشريعة الإسلامية تنظيم المجتمع الدولي والعلاقات الدولية حيث ارتكزت على مبادئ أخلاقية نابعة من مقاصد الشريعة في حد ذاتها ، كما إن تقسيم المجتمع الدولي الذي عرفه الفقهاء ارتبط في الفقه الإسلامي بفترة زمنية معينة، ولا يعتبر تشريعا دائما.

مرتكزات العلاقات الدولية في الإسلام

تتضمن الشريعة الإسلامية القواعد المتعلقة بتنظيم علاقات الأفراد فيما بينهم وعلاقتهم بدولتهم وهو ما يعرف في المصطلح القانوني بقواعد القانون الوطني، وكذا القواعد المتعلقة بتنظيم العلاقات بين الدول، وهو ما يعرف في المجال القانوني بقواعد القانون الدولي العام، فالشريعة تتصف بصفة العموم وشمول قواعدها.

وقد نظمت الشريعة الإسلامية علاقات الدولة الإسلامية بغيرها من الأمم والشعوب، سواء أكان ذلك في فترة السلم أو فترة الحرب.

جاءت الشريعة الإسلامية بتنظيم شامل للعلاقات الدولية سواء وقت السلم أو وقت الحرب، فقد جاء الإسلام بمجموعة من المرتكزات منها :

أ- مبدأ السلام: حيث أن الإسلام دين سلام، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١ ﴾ [5]

والإسلام في حد ذاته كلمة مشتقة من السلم والسلام، وتفيد في مفهومها الاستسلام لنواميس الكون وسن الله تعالى.

ب- مبدأ العالمية : حيث أن الإسلام دين موجه إلى كافة الناس، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ ﴾ [6].

ج- الوفاء بالعهد: قال تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤ ﴾ [7]. قال تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١ ﴾ [8].

إن مبدأ الوفاء بالعهد هو مبدأ عام ينطبق على العلاقات الخاصة بين الأفراد داخل الدولة، كما يمتد لينطبق أيضا على علاقات الدولة الإسلامية مع غيرها من الدول سواء في وقت السلم أو وقت الحرب.

وقد كان من بنود صلح الحديبية في عهد النبي ﷺ " أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، ومن جاء منكم لم نرده عليكم "[9].

وقد حدث تضايق للمسلمين في بداية الأمر من موافقة النبي ﷺ على ذلك. وقد قدم أبو جندل (ابن سهيل بن عمرو) فارا من المشركين، وقام إليه أبوه وهو يقول: يا محمد لقد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال صدقت، فبدأ يجره ليرده إلى قريش، وأبو جندل يصرخ وينادي يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فقال رسول الله ﷺ : يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا أعطينا القوم عهودا، وإنا لا نغدر بهم [10].

ومن هنا، يتضح مدى أهمية الوفاء بالعهد في الإسلام، ومدى أهمية احترام المعاهدات والالتزامات المترتبة عنها.

د- حرية العقيدة:

يقول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦ ﴾ [11]، ويقول تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩ ﴾ [12].

تعتبر حرية العقيدة الركيزة الأولى التي تبنى عليها الحريات في الإسلام، فقد عانى المسلمون في بداية الدعوة الإسلامية من الاعتداء على حريتهم في اعتناق الإسلام، فكيف يعقل بعد أن قامت الدولة الإسلامية أن يفرض على حريات الأشخاص ما عاني منه المسلمون في البداية.

وقد اعتبر الفقهاء والمفسرون آية " لا إكراه في الدين " قاعدة كبرى من قواعد الإسلام، فالله سبحانه وتعالى لم يبن الإيمان على الجبر والقسر وإنما بناه على الحرية والاختيار، لأن الإكراه يتعارض مع مفهوم الامتحان والابتلاء، قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ٣ ﴾ [13].

وهناك قصة لعمر بن الخطاب في هذا المجال، حيث أنه عندما ذهب ليعقد معاهدة سلام واستلام مفاتيح بيت المقدس، وقد حضرت الصلاة وهو بجوار الكنيسة ببيت المقدس، فقال بعض النصارى: صل فيها، قال: لو صليت فيها لأخذها العرب منكم، يقولون: نصلي كما صلى عمر، فيحتلونها ويأخذونها منكم، إذاً: ما منع عمر الصلاة في الكنيسة، ولكن خشي أن يغلبهم الناس على حق من حقوقهم.

هـ- المساواة بين جميع البشر وعدم الفصل العنصري.

أقر الإسلام مبدأ المساواة بين جميع البشر وعدم التفرقة العنصرية، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [14].

وقال تعالى أيضا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [15].

حدثنا سليمان بن حرب، قال: حدثنا شعبة، عن واصل الأحدب، عن المعرور بن سويد، قال: لقيت أبا ذر بالربذة، وعليه حلة، وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني سابيت رجلا فعيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: «يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» [16].

ويروى أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ عير آخر بسواد أمه، فقال له: يا ابن السوداء، فغضب النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: " لقد طف الكيل، لقد طف الكيل، لقد طف الكيل، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل "[17].

و – معاملة الرسل والمبعوثين الدبلوماسيين:

فرض الإسلام حسن معاملة المبعوثين والدبلوماسيين وحمايتهم واحترامهم، ويهدف هذا الأسلوب إلى فتح باب الدعوة إلى الإسلام والتعريف به [18]. وقد كتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ كتابا وأرسله مع رجلين من أتباعه، وتكلم هذان الرجلان بما لا يجب أن يتكلم به، فقال لهما الرسول ﷺ : " ما تقولان أنتما ؟ "، قالا: نقول كما قال، فقال الرسول ﷺ: " أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما " [19].

إذا تحدثنا عن القانون الدولي الإنساني عموماً فإن الأمر يحتم علينا التطرق إلى مدلول الحرب. وإذا كانت الشريعة الإسلامية لم تعرف مصطلح القانون الدولي الإنساني، إلا أنها

تطرقت إلى مضمونه الموجود حاليا في القانون الدولي الإنساني الوضعي، بل أن هذا القانون لا يتعارض في كثير من نصوصه مع قواعد الشريعة الإسلامية.

لقد عنيت الشريعة الإسلامية بعلاقات الدولة الإسلامية مع غيرها من الدول سواء أكان ذلك في زمن السلم أو في زمن الحرب. ففي مجال الحرب أقرت الشريعة الإسلامية قواعد مضبوطة يجب مراعاتها، سواء تعلق الأمر بأسباب الحرب، أو بقواعد وضوابط سير العمليات الحربية.

ز - أسس القانون الدولي الإنساني في الإسلام

إذا كان القانون الدولي الإنساني الوضعي قد تضمن تلك الأحكام المتعلقة بسير العمليات العدائية وحماية ضحايا النزاعات المسلحة، فإن الشريعة الإسلامية عرفت تنظيم العلاقات الدولية سواء تعلق الأمر بفترة السلم، أو تعلق بفترة الحرب وهو ما يعرف في المصطلح القانوني الحالي بالقانون الدولي الإنساني.